الباب السبعون: في ذكر القينات والأغاني

حكى عليّ بن الجهم قال: لما أفضت الخلافة إلى أمير المؤمنين المتوكل أهدى إليه عبد اللّه بن طاهر بن خراسان جارية يقال لها محبوبة كانت قد نشأت بالطائف فبرعت في الجمال والأدب، وأجادت قول الشعر وحذاقة الغناء، فشغف بها أمير المؤمنين المتوكل حتى كانت لا تفارق مجلسه ساعة واحدة. ثم إنه حصل منه عليها بعد ذلك جفاء فهجرها. قال عليّ بن الجهم: فبينما أنا نائم عنده ذات ليلة إذ أيقظني فقال: يا عليّ. قلت: لبيك يا أمير المؤمنين. قال: قد رأيت الليلة في منامي كأني رضيت على محبوبة وصالحتها. فقلت: خيراً رأيت يا أمير المؤمنين أقرّ الله عنيك، إنما هي جاريتك والرضا والجفاء بيدك، فوالله أنا لفي حديثها إذا جاءت وصيفة فقالت: يا أمير المؤمنين، سمعت صوت عود من حجرة محبوبة، فقال: قم بنا يا علي ننظر ما تصنع، فنهضنا حتى أتينا حجرتها فإذا هي تضرب بالعود وتقول:

أدورُ في القصرِ لا أرى أحداً ... أشكُو إليه ولا يكلِّمُني
كأنني قد أتيتُ معصيةً ... ليس لها توْبةٌ تخلِّصُني
فهل شفيعٌ لنا إلى ملكٍ ... قد زارَني في الكَرى وصالحني
حتى إذا ما الصباحُ لاح لنا ... عادَ إلى هجرهِ وصارَمَني

قال: فصاح أمير المؤمنين فلما سمعته تلقته وأكبت على رجليه تقبلهما فقال: ما هذا؟ قالت: يا مولاي رأيت في منامي هذه الليلة كأنك قد رضيت عني، فأنشدت ماسمعت. قال: وأنا والله رأيت مثل ذلك. ثم قال؛ يا علي هل رأيت أعجب من هذا الاتفاق، ثم أخذ بيدها ومضى إلى حجرتها وكان من أمرهما ما كان. قيل: وكان أمير المؤمنين الواثق إذا شرب رقد في موضعه الذي شرب فيه، ومَنْ كان معه من ندمائه شرب ورقد، ولم يخرج. فشرب يوماً وخرج مَنْ كان عنده إلا مغنياً واحداً أظهر التراقد فترك وكانت مغنية من حظايا الخليفة نائمة، فلما خلا المجلس كتب المغني رقعة ورمى بها إليها فإذا فيها:

إني رأيتكِ في المنامِ ضَجِيعَتي ... مسترشفاً من ريقِ فيكِ البارِدِ
وكأنَّ كفَّك في يدِي وكأننا ... بتنا جميعاً في لحافٍ واحدِ
ثم انتبَهْتُ ومنكَبَاك كلاهما ... في راحتيَّ وتحتَ خدِّكِ ساعِدِي
فقطَعْتُ يومي كله متراقِداً ... لأراكِ في نومي ولستُ براقِدِ

فكتبت إليه على ظهرها تقول:

خيراً رأيتَ وكلُّ ما أملتَه ... ستنالُه مني برغمِ الحاسِدِ

وتبيتُ بين خلاخلي ودمالجي[1] وتحلّ بين مراشفي ونواهِدِي
ونكونُ أنعمَ عاشقَيْن تعاطيا ملحَ الحديثِ بلا مخافةِ راصِدِ[2]

فلما مدّت يدها لترمي إليه بالرقعة، رفع الواثق رأسه فأخذها من يدها وقال ما هذا فحلفا له أنه لم يجر بينهما قبل ذلك كلام، ولا كتاب، ولا رسول. إلا أن العشق قد خامرهما قال فأعتقها من وقتها وزوّجها به، وقال خذها ولا تقربنا بعد اليوم. وكان لأسماء بنت المهدي جارية يقال لها كاعب وكانت بكراً ناهداً بنت ثلاث عشرة سنة قال فتلاعب عليها أبو نواس فتمنعت فوقع في قلبه منها ما وقع، وأحبته هي أيضاً، فجعل أبو نواس كلما أمسكها تمنعت، فظفر بها ليلة من الليالي في ناحية من القصر فأمسكها فبكت. وقالت له يا سيدي الموت دون ذلك. فقال أبو نواس هذا جزع الأبكار فاتفق أنه خرج يوماً من القصر وقد ترقرق الدجا فوجدها نائمة في سدلة وهي سكرى لا تفيق، فتقرّب منها وحلّ سراويلها ووقع عليها فإذا هي خالية من البكارة فارتاع وظن أن يكون أتاها دم فلم يجد فقام عنها وندم على ما كان منه وأنشد يقول:

وناهدةِ الثديَيْنِ من خدمِ القصرِ مرقرقَةِ الخدَّيْنِ ليليَّةِ الشعرِ
كلفتُ بها دهراً على حُسنِ وجهها طويلاً وما حبُّ الكواعب من أمري
فما زلتُ بالأشعارِ حتى خَدَعْتُها وروَّضْتُها والشعرُ من خِدَعِ السحرِ
أطالبُها شيئاً فقالت بعبرةٍ أموتُ ولا هذا ودمعَتُها تجري
فلما تعارَضْنا توسَّطت لجةً غرقتُ بها يا قومُ في لججِ البحرِ
فصِحْتُ أغثني يا غلامُ فجاءني وقف زلقَتْ رجلي وصرتُ إلى الصدرِ
ولولا صياحي بالغلامِ وأنه تدارَكَني بالحبلِ صرتُ إلى القعرِ
فأقسَمْتُ عمري لا ركبت سفينةً ولا سرتُ طولَ الدهر إلا على ظهرِ[3]

ومن ذلك ما حدّث الشيباني قال: كان عند رجل بالعراق قينة، وكان أبو نواس يختلف إليها وكانت تظهر له أنها لا تحب غيره وكان كلما دخل إليها وجد عندها شاباً يجالسها ويحادثها فقال فيها هذه الأبيات:

ومظهرةٍ لخلقِ الله ودّاً وتلقي بالتحيَّة والسلامِ
أتيتُ لبابِهَا أشكو إليها فلم أخلُصْ إليه من الزحامِ
فيا من ليس يكفيها خليلٌ ولا ألفَا خليلٍ كلَّ عامِ
أراك بقيةً من قومِ موسى فهم لا يصبرون على طعامِ

وقال أبو سويد: حدّثني أبو زيد الأسدي قال دخلت على سليمان بن عبد الملك وهو جالس في إيوان مبلط بالرخام الأحمر، مفروش بالديباج الأخضر، وفي وسط بستان ملتف قد أثمر وأينع، وعلى رأسه وصائف كل واحدة منهنّ أحسن من صاحبتها. وقد غابت الشمس وغنت الأطيار فتجاوبت وصفقت الرياح على الأشجار فتمايلت، فقلت

(١) دمالجي: مفردها دملج: إسوار.
(٢) راصد: مراقب.
(٣) ظهر: يعرض بأنه يفضل اللواطة على الجماع المألوف.

السلام عليك أيها الأمير ورحمة الله وبركاته وكان مطرقاً نرفع رأسه وقال: أبا زيد في مثل هذا الحين تصاحبنا؟ فقلت أصلح الله الأمير أو قامت القيامة؟ قال: نعم على أهل المحبة، ثم أطرق ملياً ورفع رأسه، وقال: أبا زيد ما يطيب في يومنا هذا؟ قلت: أصلح الله الأمير قهوة حمراء[١]، في زجاجة بيضاء تناولها غادة هيفاء مضمومة[٢] لفاء، أشربها من كفها وأمسح فمي بخدّها، فأطرق سليمان ملياً لا يردّ جواباً وتنحدر من عينيه عبرات بلا شهيق. فلما رأت الوصائف ذلك تنحين عنه، ثم رفع رأسه فقال: أبا زيد حضرت في يوم فيه انقضاء أجلك، ومنتهى مدتك، وتصرّم عمرك والله لأضربنّ عنقك أو لتخبرني ما أثار هذه الصفة من قلبك. قلت: نعم أصلح الله الأمير؛ كنت جالساً عند دار أخيك سعيد بن عبد الملك، فإذا أنا بجارية قد خرجت من باب القصر كأنها غزال انفلت من شبكة صياد عليها قميص سكب اسكندراني يبين منه بياض بدنها وتدوير سرّتها، ونقش تكتها وفي رجليها نعلان صراران قد أشرق بياض قدميها على حمرة نعليها، بذؤابتين تضربان إلى حقويها لها صدغان كأنهما نونان، وحاجبان قد قوّساً على محاجر عينيها، وعينان مملوءتان سحراً، وأنف كأنه قصبة بلور، وفم كأنه جرح يقطرها دماً، وهي تقول: عباد الله من لي بدواء ما لا يشتكى، وعلاج ما لا يسمى، طال الحجاب، وأبطأ الجواب، والقلب طائر، والعقل عازب، والنفس والهة، والفؤاد مختلس والنوم محتبس رحمة الله على قوم عاشوا تجلداً، وماتوا كمداً لو كان إلى الصبر حيلة، أو إلى ترك الغرام سبيل لكان أمراً جميلاً. ثم أطرقت طويلاً ورفعت رأسها فقلت لها: أيتها الجارية إنسية أنت أم جنية، سماوية أنت أم أرضية: فقد أعجبني ذكاء عقلك وأذهلني حسن منطقك فسترت وجهها بكمها كأنها لم ترني ثم قالت: أعذر أيها المتكلم فما أوحش الساعد بلا مساعد. والمقاساة لصب معاند. ثم انصرفت، فوالله ما أكلت طعاماً طيباً إلا غصصت به لذكرها، ولا رأيت حسناً إلا سمج[٣] في عيني لحسنها. فقال سليمان: أبا زيد كان الجهل يستفزني والصبا يعاودني، والحلم يعزب عني لشجو ما سمعت، اعلم يا أبا زيد أن تلك التي رأيتها هي الذلفاء التي قيل فيها:

إنما الذلفاءُ ياقوتةٌ أخرجتْ من كيسِ دهقانِ[٤]

شراؤها على أخي ألف ألف درهم، وهي عاشقة لمن باعها، والله إن مات ما يموت إلا بحبها، ولا يدخل القبر إلا بغصتها، وفي الصبر سلوة، وفي توقيع الموت نهبة، قم أبا زيد في دعة الله تعالى. ثم قال: يا غلام نفله ببدرة فأخذتها وانصرفت. قال: فلما أفضت الخلافة إليه صارت الذلفاء إليه، فأمر بفسطاط فأخرج على دهناء الغوطة، وضرب في روضة خضراء مونقة زهراء ذات حدائق بهجة تحتها أنواع الزهر ما بين أصفر فاقع، وأحمر ساطع، وأبيض ناصع، وكان لسليمان مغنّ يقال له سنان به يأنس، وإليه يسكن، فأمر أن يضرب فسطاطه بالقرب منه، وكانت الذلفاء قد خرجت مع سليمان إلى ذلك المنتزه فلم يزل سنان يومه ذلك عند سليمان في أكمل سرور، وأتمّ حبور إلى أن انصرف من الليل إلى فسطاطه فنزل به جماعة من إخوانه فقالوا له: نريد قرى أصلحك الله، قال: وما قراكم؟ قالوا: أكل، وشرب، وسماع. قال: أما الأكل والشرب فمباحان لكم، وأما السماع فقد عرفتم شدة غيرة أمير المؤمنين ونهيه عنه إلاّ ما كان في مجلسه، قالوا: لا حاجة لنا بطعامك وشرابك إن لم تسمعنا. قال، فاختاروا صوتاً، واحداً

---

(١) قهوة حمراء: الخمر.
(٢) مضمونة: ممتلئة، عبلة.
(٣) سمج: قبح وغلظ.
(٤) دهقان: التاجر.

أغنيكموه. قالوا: غننا صوت كذا. فرفع صوته يغني بهذه الأبيات:

محجوبةٌ سمعَتْ صوتي فأرّقَها ... من آخرِ الليلِ لما نبه السحرُ
في ليلة البدرِ ما يدري مُضاجِعُها ... أوَجْهُهَا عنده أبهى أم القمرُ
لم يحجبِ الصوتَ أحراسٌ ولا غلقٌ ... فدَمْعُها لطروقِ الصوتِ منحدرُ
لو مكنَتْ لمشَتْ نحوي على قدمٍ ... تكادُ من لينها في المشيء تنفطرُ

قال: فسمعت الذلفاء صوت سنان، فخرجت إلى صحن الفسطاط تسمع، فجعلت لا تسمع شيئاً من حسن خلق، ولطافة قدّ، إلا رأت ذلك كله في نفسها وهيئتها، فحرّك ذلك ساكناً من قلبها فهملت عيناها وعلا نحيبها، فانتبه سليمان فلم يجدها معه فخرج إلى صحن الفسطاط فرآها على تلك الحالة فقال: ما هذا يا ذلفاء؟ فقالت:

ألا ربَّ صوتٍ رائعٍ من مشوّهٍ ... قبيحِ المحيا واضعِ الأبِ والجدِ
يروعُك منه صوتُه ولعله ... إلى أمةٍ يُعزى معاً وإلى عبدِ

فقال سليمان: دعيني من هذا، فوالله لقد خامر قلبك منه ما خامر، ثم قال: يا غلام علي بسنان. فدعت الذلفاء خادماً لها فقالت له: إن سبقت رسول أمير المؤمنين إلى سنان فحذرته لك عشرة آلاف درهم وأنت حر لوجه الله تعالى، فخرج الرسولان فسبق رسول أمير المؤمنين سليمان، فلما أتي به قال يا سنان: ألم أنهك عن مثل هذا، قال: يا أمير المؤمنين حملني على ذلك حلمك، وأنا عبد أمير المؤمنين، وغرس نغمته فإن رأى أمير المؤمنين أن يعفو عن عبده فليفعل. قال: قد عفوت عنك ولكن أما علمت أن الفرس إذا صهل،دقت له الحجرة، وأن الفحل إذا هدر ضبعت له الناقة، وأن الرجل إذا تغنى أصغت له المرأة، إياك إياك والعَوْد إلى ما كان منك فيطول غمك.

وحكي أن الرشيد فصد يوماً فأرسلت إليه بعض حظاياه قدحاً فيه شراب مع وصيفة لها جميلة الوجه حسنة الطلعة بديعة المحيا، وغطته بمنديل مكتوب عليه هذه الأبيات:

فصدت عرقاً تبتغي صحةً ... ألبسَكَ الله بهِ العافيَهْ
فاشرَبْ بهذا الكأسِ يا سيدي ... واهنَأ بها من كفِّ ذي الجاريَهْ
واجعَلْ لمن أنفذَهُ خلوةً ... تحظى بها في الليلة الآتيَهْ

قال: فنظر الرشيد إلى الوصيفة التي جاءت بالقدح فاستحسنها فافتضها، ثم أرسلها فعلمت مولاتها بذلك فكتبت إليه رقعة تقول فيها هذا الأبيات:

بعثتُ الرسولَ فأبطأ قليلاً ... على الرغم مني فصبراً جميلا
وكنتَ الخليل، وكان الرسولا ... فصرتُ الرسول وصار الخليلا
كذا مَنْ يوجِّهُ في حاجةٍ ... إلى من يحبُّ رسولا جميلا؟

قال: فاستحسن الرشيد ذلك منها وأرسل إليها: أنا عندك الليلة. وأهدى داود بن روح المهلبي إلى المهدي جارية فحظيت عنده فواعدته المبيت عنده ليلة فمنعها الحيض فكتب إليها يقول:

لأهجرنَّ حبيباً خانَ موعدَهُ ... وكانَ منه لصفوِ العيشِ تكديرُ

فأرسلت إليه تجيبه:

لا تهجـــرن حبيبـــاً خـــانَ مـــوعـــده ولا تـــذمـــنّ وعـــداً فيـــه تـــأخيـــرُ
مـــا كـــان حبســـي إلا مـــن حـــدوثِ أذى لا يُستطـــاعُ لـــه بـــالقـــولِ تفسيـــرُ

وقال محمد بن مروان يصف جارية له:

أمسَـــتْ تبـــاعُ ولـــو تبـــاعُ بـــوزنهـــا درّاً بكـــى أسفـــاً عليهـــا البـــائـــعُ

وكان للمأمون جويرية من أحسن الناس وأسبقهم إلى كلّ نادرة فحظيت عنده فحسدها الجواري وقلن لا حسب لها، فنقشت على خاتمها حسُبي حسبي، فازداد بها المأمون عجباً فسمتها الجواري فماتت فجزع عليها المأمون جزعاً شديداً وقال:

اختلسَـــتْ ريحـــانتـــي مـــن يـــدي أبكـــي عليهـــا آخـــرَ الأبـــدِ
كـــانَـــتْ هـــي الأنـــس إذا استـــوحشَـــتْ نفســـي مـــن الأقـــربِ والأبعـــدِ
وروضـــةً كـــان بهـــا مـــرتَعـــي ومنهـــلاً كـــان بهـــا مـــوردي
كـــانـــت يـــدي كـــان بهـــا قـــوّتـــي فـــاختلـــسَ الـــدهـــر يـــدي مـــن يـــدي

وللمتوكل في قينة:

أمـــازحُهـــا فتغضـــبُ ثـــم تـــرضَـــى فكـــلُّ فعـــالهـــا حســـنٌ جميـــلُ
فـــإن غضبَـــتْ فـــأحســـنُ ذي دلالٍ وإن رضيَـــتْ فليـــس لهـــا عـــديـــلُ

وحدث أبو عبد اللّه بن عبد البر قال: حدثني إسحاق بن إبراهيم، عن الهيثم بن عدي قال: كان في المدينة رجل من بني هاشم، وكان له قينتان يقال لإحداهما رشا، وللأخرى جؤذر، وكان بالمدينة رجل مضحك لا يكاد يغيب عن مجلس المستظرفين. فأرسل الهاشمي إليه ذات يوم ليسخر به، فلما أتاه قال له: أصلحك الله إنك لفي لذتك، ولا لذة لي. قال: وما لذتك؟ قال: تحضر لي نبيذاً فإنه لا يطيب لي عيشٌ إلا به. فأمر الهاشمي بإحضار نبيذ، وأمر أن يطرح فيه سكر العشر. فلما شربه المضحك تحرك عليه بطنه فتناوم الهاشمي وغمز جاريته عليه فلما ضاق عليه الأمر واضطر إلى التبرّز، قال في نفسه: ما أظنّ هاتين المغنيتين إلاّ يمانيتين، وأهل اليمن يسمون الكنف بالمراحيض، فقال لهما: يا حبيبتيّ أين المرحاض؟ فقالت إحداهما لصاحبتها: ما يقول سيدنا؟ قالت يقول غنياني:

رحضـــت[1] فـــؤادي فخليتنـــي أهيـــمُ مـــن الحـــبّ فـــي كـــلّ وادِ

فاندفعتا تغنيانه. فقال في نفسه: والله ما أظنهما فهمتا عـن، وما أظنهما إلا مكيتين وأهل مكة يسمونها المخارج. فقال: يا حبيبتي أين المخرج؟ فقالت أحداهما لصاحبتها: ما يقول سيدنا؟ قالت: يقول غنياني:

خـرجـتُ لهـا مـن بطـن مكـةَ بعـدمـا أقـام المنـادي بـالعشـيّ فـأعتمـا[2]

فاندفعتا تغنيانه. فقال في نفسه: لم يفهما عني وما أظنهما إلا شاميتين، وأهل الشام يسمونها المذاهب فقال: يا

(١) رحضت: غسلته.
(٢) فأعتما: فدخلنا في العتمة.

حبيبتيّ أين المذهب؟ فقالت إحداهما لصاحبتها: ما يقول حبيبنا؟ قالت يقول غنياني:

ذهبتُ من الهجران في كل مذهبِ ولم يك حقاً كلُّ هذا التجنُّبِ[1]

فغنتاه الصوت. فقال: لا حول ولا قوة إلا بالله العلي العظيم لم يفهما عني وما أظن القحبتين إلا مدنيتين وأهل المدينة يسمونها بيت الخلاء، فقال: يا حبيبتي أين بيت الخلاء؟ فقالت إحداهما لصاحبتها: ما يقول سيدنا؟ قالت: يقول غنياني:

خلا علي بقاعُ الأرض إذ ظعنوا من بطنِ مكّة واسترعاني الحزن

قال: فغنتاه، فقال: إنا لله وإنا إليه راجعون، ما أظن الفاسقتين إلا بصريتين، وأهل البصرة يسمونها الحشوش. فقال: يا حبيبتي أين الحش؟ فقالت إحداهما لصاحبتها: ما يقول سيدنا؟ قالت: يقول غنياني:

أوحشوني وعزَّ صبري فيهم ما احتيالي وما يكونُ فعالي

قال: فاندفعتا تغنيانه. فقال: ما أراهما إلا كوفيتين، وأهل الكوفة يسمونها الكنف. فقال لهما: يا حبيبتي أين الكنيف. فقالت أحداهما لصاحبتها: يعيش سيدنا ما رأيت أكثر اقتراحاً من هذا الرجل. قالت: ما يقول؟ قالت: يسأل أن تغني له:

تكنَّفَني الهوى طفلاً فشيَّبني وما اكتهَلا

فقال: واويلاه وأعظم مصيبتاه هذا، والهاشمي يتقطع ضحكاً فقال لهما: يا زانيتان إن لم تعلماني به، أنا أعملكم ثم رفع ثيابه وسلم عليهما، وعلى الفراش، فانتبه الهاشمي وقد غشي عليه من شدة الضحك وقال: ويلك ما هذا تسلح على وطائي. فقال الرجل: حياة نفسي أعز علي من وطائك. وقيل إنه لما قيل له ويلك ما هذا قال المضحك هذه الأبيات:

تكنَّفني الملاحُ وأضجَرُوني على ما بي بنيَّاتُ الزواني
فلما قلَّ عن ذاك اصطباري قذَفْتُ به على وَجْهِ الغواني

قال فانبسط الهاشمي ودفع له مالاً، ومضى إلى سبيله. وقال علي بن الجهم قلت لقينة:

هل تعلمين وراء الحبِ منزلةً تدني إليك فإنَّ الحبَّ أقصاني

قالت: تأتي من باب الذهب، وأنشدت:

اجعل شفيعَك منقوشاً تقدمه فلم يزل مُدّنياً من ليس بالداني

وكان أشعب يختلف إلى قينة بالمدينة فجلس عندها يوماً يطارحها الغناء، فلما أراد الخروج قال لها: ناوليني خاتمك أذكرك به. قالت: إنه ذهب وأنا أخافُ أن تذهب، ولكن خُذْ هذا العود فلعلك أن تعود وناولته عوداً من الأرض. وكان بعض القينات من الجمال والحسن بجانبه، ثم أصابتها علة فتغير حالها فكانت تنشد:

ولي كبدٍ مقروحة من يبيعني بها كبداً ليسَتْ بذاتِ قروحِ

---

(١) التجنب: التباعد.

أبـاهـا علـي النـاسُ لا يشتـرونهـا ومــن يشتــري ذا علــةٍ بصحيــحِ

وكان المعتصم يحب قينة من حظاياه فاتفق أنه خرج إلى مصر وتركها فذكرها في بعض الطريق فاشتاق إليها فغلبه الوجد فدعا مغنياً وقال: ويحك قد ذكرت جاريتي فلانة فأقلقني الشوق إليها، فعسى أن تغنيني شيئاً في معنى ما ذكرته لك. فأطرق ملياً ثم غناه:

وددتُ مـن الشـوق المبـرح أننـي أُعـار جنـاحَـيْ طـائـرٍ فـأطيـرُ
فمـا لنعيـمٍ ليـس فيـه بشـاشَـةٌ ومـا لسـرورٍ ليـس فيـه سـرورُ
وإنِ امـرأ فـي بلـدةٍ نصـف قلبِـهِ ونصـف بـأخـرى غيـرهـا لصبـور

والحكايات في معنى ذلك كثيرة، ولو أردت بسطها لاحتجت إلى مجلدات ولكن ما قلَّ وجلَّ خير من كثيرٌ يُمِلُّ. وفيما ذكرته كفاية والله المسؤول أن يمدني منه باللطف والعناية ونسأله التوفيق والهداية وصلى الله على سيدنا محمد وعلى آله وصحبه وسلم.